

مؤتمر مكة المكرمة الثامن

[الخطاب الإسلامي

وإشكاليات العصر]

٥-٧ ذي الحجة/١٤٢٨هـ

١٥-١٧ ديسمبر/٢٠٠٧م

بحث بعنوان :

[تجديد الخطاب الدعوي]

تأصيلاً وتطبيقاً

إعداد :

د . علي بن عمر الدحداح

كلية الآداب – جامعة الملك عبد العزيز

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أرسل رسوله رحمة للعالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وإمام الدعاة والمبلغين عن رب العالمين، سيدنا وحبیبنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الخطاب الدعوي الذي يعلم المسلمین ويذكرهم، ويبشر الناس وينذرهم ينبغي أن يكون متنوعاً ليصل إلى الناس كافة، صغاراً وكباراً، رجالاً ونساءً مثقفين وعوام، طلبة علم وعلماء، وبدون هذا التنوع تنحصر الدعوة في فئات معينة دون غيرها وهذا لا يتفق مع طبيعة رسالة الإسلام الذي جاء للناس أجمعين، وجاءت أركانه وفرائضه غاية في الوضوح، كما أن كتابه القرآن الكريم واضح المعاني سهل الأسلوب يفهمه على الإجمال كل أحد، فلا غموض فيه ولا تعقيد ولا تكلف، وقد علق الشاطبي على كون شريعة الإسلام أمية عامة ومما قاله: "أن تكون التكاليف الاعتقادية والعملية مما يسع الأمي تعقلها ليسعه الدخول تحت حكمها، أما الاعتقادية بأن تكون من القرب للفهم والسهولة على العقل بحيث يشترك فيها الجمهور من كان منهم ثاقب الفهم أو بليداً، فإنها لو كانت مما لا يدركه إلا الخواص لم تكن الشريعة عامة"، وإننا ندرك أن هناك توسعاً في المسائل العلمية وتبحراً في بعض الدقائق لكن الأصول العامة ليس فيها إلا الوضوح، ولذا وجب أن يراعي الخطاب الدعوي جمهور المخاطبين وأن يتم اعتماد قاعدة (حدثوا الناس بما يعرفون) وأن يكون هناك التقريب والتبسيط الذي يتم بموجبه استيعاب الدعوة لكل الفئات.

كما أن الخطاب الدعوي الذي يعرف بالإسلام ويدعو إليه ينبغي أن يكون مراعيًا لحال غير المسلمين من جميع النواحي مضموناً وأسلوباً ووسيلة.

وفي هذه الورقة الوجيزة سأعرض لمفهوم الخطاب الدعوي، وتأصيله والعوامل المؤثرة فيه، ثم أخص الخطاب الدعوي الموجه لغير المسلمين بشي من التفصيل فأبين العناصر المقترحة لهذا الخطاب من حيث المضمون، وطرق الاستدلال، وأساليب الخطاب الموفقة لطبيعة المخاطبين.

وفي هذه المقدمة أقدم الشكر لرابطة العالم الإسلامي لاعتنائها بهذا الموضوع المهم في موسم الحج الجامع للمسلمين من فجاج الأرض ليشهدوا منافع لهم، وليلتقي علماءهم ومفكرهم لبحث المسائل والموضوعات العامة التي تتعلق بمصلحة الأمة الإسلامية وخدمة رسالتها ونشر دعوتها.

وقد جعلت هذه الورقة في تمهيد وثلاثة مباحث اندرجت تحتها مسائل متعددة واجتهدت في أن تكون ذات طابع عملي وطيد الصلة بالواقع.

والله تعالى أسأل أن ينفعنا بما نقول ونفعل وأن يوفقنا لتبليغ دينه ونشره في العالمين، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين.

بين يدي الخطاب الدعوي يجدر بنا أن نهمد بتعريف الدعوة ومكانتها  
لارتباطها الوثيق بهذا الخطاب إذ هي مضمونه وفحواه.

### مفهوم الدعوة:

قال ابن تيمية في تعريف الدعوة: والدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به  
وبما جاءت به رسله وبتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا<sup>(١)</sup> وعرفها  
بعض المعاصرين بقوله تبليغ الإسلام للناس وتعليمه إياهم وتطبيقه في واقع الحياة  
<sup>(٢)</sup>، وأوجز الطبري القول وأبلغ في المعنى حين قال عن الدعوة: هي دعوة  
الناس إلى الإسلام بالقول والعمل<sup>(٣)</sup>.

### مكانة الدعوة في الكتاب والسنة:

لقد بين القرآن الكريم مكانة الدعوة إلى الله في آيات كثيرة، وبأساليب  
متعددة، وإن المتأمل في كتاب الله تعالى ليجد فيه الله كثيراً من الآيات التي  
تتحدث عن الدعوة، وهذا إيجاز لبعض معالم الدعوة في القرآن:

١- الدعوة إلى الله مهمة الرسل: بين الله تعالى أن مهمة الرسل هي دعوة  
الناس إلى توحيد الله تعالى، قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا  
اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) (النحل: من الآية ٣٦).

(رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ  
اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) (النساء: ١٦٥).

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٥/١٥٧).

(2) المدخل إلى علم الدعوة (ص/١٧).

(3) تفسير الطبري (١١/٥٣).

فإن الله سبحانه يعلم أن العقل الذي آتاه للإنسان أداة قاصرة بذاتها عن الوصول إلى الهدى التام، وقاصرة كذلك عن رسم منهج للحياة الإنسانية يحقق المصلحة الصحيحة الشاملة لهذه الحياة؛ وينجي صاحبه من سوء المآل في الدنيا والآخرة<sup>(١)</sup>. لذلك (أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والندارة، وبين ما يجب عليه ويرضاه مما يكرهه ويأباه؛ لئلا يبقى لمعتذر عذر)<sup>(٢)</sup>.

ولما كان الهدف هو تبليغ دعوة الله لخلقه فقد أرسل الله كل رسول بلسان قومه (ليبين لهم تلك التكاليف بلسانهم، فيكون إدراكهم لذلك البيان أسهل ووقوفهم على المقصود والغرض أكمل)<sup>(٣)</sup>. قال سبحانه: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (ابراهيم: ٤) (فلكي يتمكن الرسول من إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، لم يكن بد من أن يرسل بلغتهم، ليبين لهم وليفهموا عنه، فتمت الغاية من الرسالة)<sup>(٤)</sup>.

والقرآن خاطب النبي الكريم ﷺ ووصفه بأنه داعية لله فقال جل وعلا: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً) (الأحزاب: ٤٦).

فمهمة الرسول (وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ) أي: أرسله الله، يدعو الخلق إلى ربهم، ويسوقهم لكرامته، ويأمرهم بعبادته، التي خلقوا لها، وذلك يستلزم استقامته، على ما يدعو إليه، وذكر تفاصيل ما يدعو إليه، بتعريفهم لربهم بصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإخلاص الدعوة إلى الله، لا إلى نفسه

(1) انظر في ظلال القرآن - (ج ٢ / ص ٢٨٣).

(2) تفسير ابن كثير - (ج ٢ / ص ٤٧٥).

(3) تفسير الرازي - (ج ٩ / ص ٢٠٧).

(4) في ظلال القرآن - (ج ٤ / ص ٣٨٨).

وتعظيمها، كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام، وذلك كله بإذن الله تعالى له في الدعوة وأمره وإرادته وقدره<sup>(١)</sup>.

## ٢- الدعوة إلى الله مهمة أتباع النبي ﷺ:

قال تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (يوسف: ١٠٨) .

فكما أن الدعوة إلى الله مهمة المرسلين وطريقتهم، فإنها كذلك طريق ورثتهم وأتباعهم على مر الدهور والأيام، ولذلك أمر الله رسول ﷺ أن يعلن ذلك على الناس جميعاً ويخبرهم أن هذه سبيله (أي طريقته ومسلكه وسنته وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان ، هو وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي)<sup>(٢)</sup>.

## ٣- الدعوة إلى الله خصيصة ومهمة الأمة الإسلامية: لما اقتضت حكمة

الله أن يختم الرسالات بالإسلام والنبوات بمحمد ﷺ جعل من الأسباب ما يكفي لقيام الحجة على الخلق ودوام بيان الحق ومن ثم جعل أمة الإسلام أمة دعوة ورسالة تواصل السير على منهاج النبوة وتبليغ الدعوة وتقيم الحجة، قال تعالى:

(وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (آل عمران: ١٠٤) (والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه.

وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ

(1) تفسير السعدي - (ج ١ / ص ٦٦٧).

(2) تفسير ابن كثير (ج ٤ / ص ٤٢٢)

الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم بالشرع<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - الدعوة إلى الله سبب من أسباب خيرية هذه الأمة:

قال تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) (آل عمران: من الآية ١١٠).

قال عمر رضي الله عنه: (قال عمر بن الخطاب: لو شاء الله لقال: "أنتم"، فكنا كلنا، ولكن قال: "كنتم" في خاصة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن صنع مثل صنيعهم، كانوا خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)<sup>(٢)</sup>.

وهكذا (بمدح تعالى هذه الأمة ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتضمن دعوة الخلق إلى الله وجهادهم على ذلك وبذل المستطاع في ردهم عن ضلالهم وغييهم وعصيانهم، فبهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس، لما كانت الآية السابقة وهي قوله: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) أمراً منه تعالى لهذه الأمة، والأمر قد يمثله المأمور ويقوم به، وقد لا يقوم به، أخير في هذه الآية أن الأمة قد قامت بما أمرها الله بالقيام به، وامثلت أمر ربها واستحقت الفضل على سائر الأمم)<sup>(٣)</sup>.

#### ٥ - الدعوة إلى الله هم أحسن الناس قولاً:

(1) تفسير السعدي - (ج ١ / ص ١٤٢).

(2) تفسير الطبري - (ج ٧ / ص ١٠١).

(3) تفسير السعدي - (ج ١ / ص ١٤٣):

قال تعالى : (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (فصلت: ٣٣). فهذه الآية نص في أن أحسن الناس قولاً هم الدعوة إلى الله المستقيمون على أمر الله في أنفسهم والداعين غيرهم للالتزام بشرع الله، قال الطبري: (ومن أحسن أيها الناس قولاً ممن قال ربنا الله ثم استقام على الإيمان به، والانتهاى إلى أمره ونهيه، ودعا عباد الله إلى ما قال وعمل به من ذلك)<sup>(١)</sup>. وهكذا (فكل من جمع بين دعاء العباد إلى ما شرعه الله ، وعمل عملاً صالحاً ، وهو : تأدية ما فرضه الله عليه مع اجتناب ما حرمه عليه ، وكان من المسلمين ديناً لا من غيرهم ، فلا شيء أحسن منه ، ولا أوضح من طريقته ، ولا أكثر ثواباً من عمله)<sup>(٢)</sup>.

وهذه الآية تدل على أن الدعوة إلى الله أحسن من كل ما سواها، بل وتدل على وجوب الدعوة كما استنبط ذلك الإمام الرازي في تفسيره وهو استنباط جميل ودقيق تجدر العناية به والوقوف عنده، فقوله تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ) يدل على أن الدعوة إلى الله أحسن من كل ما سواها وبيان ذلك أن كل ما كان أحسن الأعمال وجب أن يكون واجباً ، لأن كل ما لا يكون واجباً فالواجب أحسن منه ، فثبت أن كل ما كان أحسن الأعمال فهو واجب ، إذا عرفت هذا فنقول الدعوة إلى الله أحسن الأعمال بمقتضى هذه الآية ، وكل ما كان أحسن الأعمال فهو واجب ، ثم ينتج أن الدعوة إلى الله واجبة<sup>(٣)</sup>.

## ٦ - الدعوة إلى الله من الفقه الأكبر:

لأن الدعوة إلى الله دعوة إلى توحيده والقيام بحقه سبحانه، والدعوة إلى توحيد الله تأخذ حكم التوحيد في مكانتها ومنزلتها ولذلك فهي تدخل في الفقه

(1) تفسير الطبري (ج ٢١ / ص ٤٦٨)

(2) فتح القدير (ج ٦ / ص ٣٥٤):

(3) انظر: تفسير الرازي (ج ١٣ / ص ٣٩٤).

الأكبر؛ الذي هو: توحيد الله تبارك وتعالى؛ وذلك لأن الوسائل تأخذ أحكام المقاصد، فلما كان أشرف شيء وأعظمه في هذا الدين هو توحيد الله تبارك وتعالى، وكانت الدعوة وسيلة إلى توحيد الله، فإنها تكون أعظم الفقه، فهي من الفقه الأكبر الذي يجب على الدعاة إلى الله وعلى طلبة العلم أن يعرفوه، وكما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

### مفهوم الخطاب الدعوي وتأصيله :

من المهم في البداية معرفة دلالة هذا المصطلح وبيان المراد من الخطاب الدعوي .

**الخطاب في اللغة:** الخِطَابُ والمُخَاطَبَةُ مُرَاجَعَةُ الكَلَامِ<sup>(١)</sup>. ومنه قوله تعالى: (وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الدِّينِ ظَلْمًا). والخطاب: الكلام بين متكلم وسماع، وخطيب القوم: المتكلم عنهم، والخطبة: اسم للكلام الذي يتكلم به الخطيب، والخطبة مثل الرسالة لها أول وآخر.

والمراد حينئذ بالخطاب الدعوي: هو الكلام والمراجعة في شأن الدعوة.

ويمكننا القول بأن الخطاب الدعوي هو: مجموعة قوالب العرض للمضامين الدعوية الإسلامية التي تقدم بمنهجية أصيلة بما يلائم المتغيرات المختلفة وصولاً إلى الإيضاح والإقناع وإقامة الحجة.

### شرح التعريف:

مجموعة قوالب العرض: المقصود أن الخطاب الدعوي في جوهره مرتبط بأساليب عرضه على الناس، وهذا العرض متنوع فرمما يكون قولياً كالخطبة والموعظة والدرس العلمي ونحو ذلك، وربما يكون عملياً: كمشروع خيرى، أو معهد تعليمي، أو منتج تقني.

(1) انظر: لسان العرب - (ج ١ / ص ٣٦٠). تاج العروس - (ج ١ / ص ٤٦٣)

وفي كل جانب صور من العرض فالقول قد يكون مصحوباً بوسائل إيضاح مادية عصرية، كما أنه قد يشتمل على ألوان من قوالب التأثير والإقناع كالقصة والمثل والمقارنة ونحو ذلك. والبرامج العملية كذلك تشتمل على صور كثيرة من التنوع وتستخدم كثيراً من الوسائل. فالمراد إذن هو (الصور والأساليب المتنوعة التي يقوم بها الخطاب الدعوي).

للمضامين الدعوية الإسلامية: والمقصود هنا محتوى الخطاب المقدم بشتى الوسائل فإنه خاص بالدعوة الإسلامية بمعناها الواسع الشامل، وذلك يُخرج غيرها من المضامين كالمضمون العلمي البحت، أو الاقتصادي المجرد وهكذا، والدعوة الإسلامية هنا واسعة فتدخل فيها الأوامر والنواهي، والمقاصد والغايات، والأحكام والتشريعات، وتتدرج فيها العلوم الشرعية المختلفة والعلاقة بين هذه العلوم وواقع الحياة.

منهجية أصيلة: المراد هنا الالتزام بالأحكام الشرعية وضوابطها بحيث لا يكون تميمٌ يُحلُّ بالثوابت أو يخالف أحكاماً شرعية ثابتة بحجة الرغبة في التنوع وحسن العرض ونحو ذلك.

الملائمة للمتغيرات المختلفة: وذلك لأن البيئة الدعوية تختلف باختلاف عوامل متعددة، ولذلك فلا بد للخطاب الدعوي أن يكون مناسباً للبيئة التي يكون فيها على كل الأحوال مع محافظته على مضمونه وجوهره.

الإقناع وإقامة الحجة: والمراد هنا بيان الغاية النهائية فمهما كان القالب والشكل وبأي مضمون دعوي في الأحكام أو المقاصد، مع الارتباط بالأصالة المنهجية، والملاءمة الواقعية فإن الغرض هو ثبوت الحجة المؤدية إلى حصول القناعة لدى المخاطب.

فنحن نتحدث عن مضمون دعوي، يتم بعد دراسة أحوال المخاطبين واختيار بعض مفرداته، وترتيب أولوياته، وانتصاب حججه وبراهينه بحسب مسلمات المخاطبين وما يقرون به، ويعتمدون على الاحتجاج به، وربما كان بعضهم عقلاني منطقي، وربما كان بعضهم علمي تجريبي، وربما كان بعضهم إنساني فطري، ولكلٍ من الحجج ما يقنعه ويسلم به ويرضى بالرجوع إليه، ولا بد مع ذلك - بعد الدراسة

أيضاً - من تحديد المراحل والتدرج المناسب للوصول من القناعة في مراحل أولى إلى القناعة في مرحلة بعدها استناداً إليها ، وكل ذلك في قوالب متنوعة قد تكون وسائل في حد ذاتها لكنها من وجه آخر هي جزء من المراعاة لطبيعة وبيئة المخاطبين وهي كذلك صورة من صور البيان وإقامة الحجة وتيسير القناعة. ومعنى ذلك أن الخطاب ليس بالضرورة هو الكلام أو المحاضرة ، فالمقصود هو أسلوب عرض المضمون لا وسيلة العرض، فربما يكون الخطاب الدعوي كتاباً أو شريطاً مسموعاً أو مرئياً ، أو مجلة ، أو نشرة أو موقعاً إلكترونياً فالمهم المضامين المختارة ، ولغة الخطاب ، ونسبة التركيز ، ومنهجية العرض والاستدلال .

### تأصيل تنوع وتجدد الخطاب الدعوي :

إن الخطاب الدعوي فيه تغير بحسب الأشخاص أو الظروف، وهذا التغير ثابت في القرآن والسنة. حيث يختلف خطاب القرآن للمؤمنين عن خطابه للمشركين أو المنافقين أو أهل الكتاب.

وإذ نقرر أن الخطاب يختلف باختلاف المخاطبين لا في أسلوبه فحسب بل في مضمونه ، فنحن في حاجة إلى بيان الأصول الشرعية لذلك، وهذه ومضات قرآنية ونبوية في هذا الباب :

الخطاب القرآني تنوع في مضمونه وأسلوبه بين الفترة المكية والفترة المدنية، وبين خطاب الكافرين والمؤمنين ، فهناك الخطاب بـ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) وخطاب (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا). ففي مكة نزل مثل قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) (الحج: ١) ونزل قوله تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ) (١٠٠) (بَدِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (الأنعام: ١٠٠-١٠١) وفي المدينة نزل مثل قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الحجرات: ١) ونزل قوله تعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا

اشْهَدُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ) (آل عمران: ٦٤) وهكذا «فالسور المكية تضمنت الأصول التي اتفقت عليها رسل الله، إذ كان الخطاب فيها يتضمن الدعوة لمن لا يقر بأصل الرسالة، وأما السور المدنية ففيها الخطاب لمن يقر بأصل الرسالة كأهل الكتاب الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض، وكالمؤمنين الذين آمنوا بكتب الله ورسوله؛ ولهذا قرر فيها الشرائع التي أكمل بها الدين... ولهذا كان الخطاب في السور المكية (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) لعموم الدعوة إلى الأصول، إذ لا يدعي إلى الفرع من لا يقر بالأصل، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وعز بها أهل الإيمان وكان بها أهل الكتاب خوطب هؤلاء وهؤلاء، فهؤلاء (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) وهؤلاء (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)<sup>(١)</sup>.

وهكذا فقد تنوع الخطاب في طريقة العرض والأسلوب، ومن أنواع الخطاب الدعوي التي جاءت في القرآن:

١- الخطاب العقلي البرهاني: وفيه يتجلى التركيز في خطاب الكافرين على الحجة العقلية المنطقية واستخدام أساليب الحجاج والمناظرة العقلية المفضية إلى التسليم بالحقائق عبر عرض المسلمات العقلية في قوالب متنوعة، وهناك أساليب كثيرة مستنبطة من الكتاب والسنة في إقامة الحجة العقلية واستخدام الأقيسة المنطقية واستحضار التفكير والتأمل<sup>(٢)</sup>.

وهذه جوانب من هذه الأساليب مع بعض الأمثلة عليها:-

[أ] أسلوب المقارنة:

وذلك بعرض أمرين أحدهما هو الخير المطلوب الترغيب فيه، والآخر هو الشر المطلوب التهيب منه، وذلك باستشارة العقل للتفكير في كلا الأمرين وعاقبتهما للوصول - بعد المقارنة - إلى تفضيل الخير وأتباعه ومن أمثلة ذلك:-

قال تعالى: (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ

(1) فتاوي ابن تيمية (١٦٠/١٥) بتصرف.

(2) انظر: المدخل إلى علم الدعوة للبيانوني ص: ١٧٢، ١٨١، وأصول الدعوة لزيدان (ص: ٤٧٠).

مَثَلُهُ فِي الظُّلْمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ  
(الأنعام: ١٢٢).

قال ابن كثير في تفسيره: هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان  
ميتاً أي في الضلالة هالكا حائراً، فأحياه الله أي أحيى قلبه بالإيمان وهداه له  
ووقفه لإتباع رسله (١).

[ب] أسلوب التقرير: -

وهو أسلوب يؤول بالمرء بعد المحاكمة العقلية إلى الإقرار بالمطلوب الذي  
هو مضمون الدعوة وغايتها.

من الأمثلة القرآنية على ذلك: -

١ - قال تعالى (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ  
الْمُصَيِّرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ  
(٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبُنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَعْرَمٍ مُثْقَلُونَ  
(٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ  
الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (الطور:  
٣٥-٤٣). قال ابن كثير في تفسيره: هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد  
الألوهية، فقال تعالى: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) أي أوجدوا من غير  
موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي لا هذا ولا هذا بل الله هو الذي خلقهم،  
وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً (٢).

وهذه الآية في غاية القوة من حيث الحججة العقلية لأن وجودهم هكذا من  
غير شيء أمر ينكره منطلق الفطرة ابتداءً ولا يحتاج إلى جدل كثير أو قليل، أمّا أن

(1) تفسير ابن كثير (١٧٢/٢).

(2) تفسير ابن كثير (٢٤٤/٤).

يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدعوه، ولا يدعيه مخلوق، وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة فإنه لا يبقى سوى الحقيقة التي يقولها القرآن وهي أنهم من خلق الله جميعاً<sup>(١)</sup>، والتعبير بالفطرة مقصوده الأمر المقرر بداهة في العقل.

### [ج] أسلوب الإمرار والإبطال:-

وهو أسلوب قوي في إفحام المعاندين أصحاب الغرور والصلف بإمرار أقوالهم وعدم الاعتراض على بعض حججهم الباطلة منعاً للجدل والنزاع خصوصاً إلى حجة قاطعة تدمغهم وتبطل بها حججهم تلك فتبطل الأولى بالتبع. ومن الأمثلة القرآنية على هذا الأسلوب:

١ - قصة إبراهيم مع النمرود قال تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (البقرة: ٢٥٨).

نقل ابن كثير في تفسيره عن بعض السلف أن قول النمرود أنه يحي ويميت استدلل له بأن أتى برجلين استحقا القتل، فأمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر، ثم قال: والظاهر - والله أعلم - أنه ما أراد هذا لأنه ليس يدعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة، ويوهم أنه فاعل لذلك وأنه هو الذي يحي ويميت، ثم قال: إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت فالذي يحي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذراته وتسخير كواكبه وحركاته فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فإن كنت إلهاً كما تدعي، فأنت بها من المغرب، فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت: أي خرس فلا يتكلم وقامت عليه الحجة، وبين أن المقام الأول كالمقدمة للمقام الثاني، وهذا الأسلوب

(1) في ظلال القرآن (٦/٣٣٩٩).

يثبت بطلان ما ادعاه النمرود في ادعائه الأول<sup>(١)</sup>.

[د] أسلوب إثبات التمانع:

كقوله (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) (الانبياء: من الآية ٢٢) (وبيان ذلك: أن العالم العلوي والسفلي، على ما يرى، في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة، ولا معارضة، فدل ذلك، على أن مدبره واحد، وربّه واحد، وإلهه واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك، لاختل نظامه، وتقوضت أركانه فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معاً، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر، وعدم اقتداره واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور، غير ممكن، فإذا يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير ممانع ولا مدافع، هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ) (المؤمنون: ٩١)<sup>(٢)</sup>.

[هـ] أسلوب الإثبات بقياس الأولى:

كما في قوله تعالى: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) (يس: ٧٨-٧٩) (وهذا بمجرد تصوره، يعلم به علما يقينا لا شبهة فيه، أن الذي أنشأها أول مرة قادر على الإعادة ثاني مرة، وهو أهون على القدرة إذا تصوره المتصور، (وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ).

(1) تفسير ابن كثير (١/٣١٣).

(2) السعدي: (ج ١ / ص ٥٢١).

وكما ركزت الآيات والسور المكية التي تخاطب الكافرين على الحجج العقلية والأدلة المادية فقد كان التركيز في خطاب المؤمنين على الاعتقاد القلبي والإيمان الغيبي والتعلق بالآخرة ونعيمها وعذابها والحث على الأعمال بالترغيب في ثوابها والتشويق إلى ما فيها من رضوان الله ومحبه ونحو ذلك: (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (النور: من الآية ٢٢) .  
وكما في قوله تعالى: (ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (البقرة: من الآية ٢٣٢) وقوله تعالى في آيات سورة الطلاق: (ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا) (الطلاق: من الآية ٢) وقوله تعالى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) (الطلاق: من الآية ٤) وقوله تعالى: (ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) (الطلاق: ٥).

وهذا الخطاب الاستدلالي العقدي كان مركزاً في الموضوعات المتعلقة بالعقيدة وإثبات الألوهية ونصب الأدلة على القدرة الإلهية ، وحقائق الغيب واليوم الآخر كان لها النصيب الأوفى في المرحلة المكية لتأسيس القاعدة الإيمانية، بينما أخذت الأحكام التفصيلية والآداب المرعية مساحة أكبر في الخطاب المدني .  
تقول أم المؤمنين عائشة (إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا تَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَأَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا لَا نَدْعُ الْخَمْرَ أَبَدًا وَلَوْ نَزَلَ لَأَشْرَبُوا لَقَالُوا لَا نَدْعُ الْخَمْرَ أَبَدًا لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ، (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ) (القمر: ٤٦) وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ...<sup>(١)</sup>).

قال ابن حجر: (أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل ، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد ، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة وللکافر

(1) صحيح البخاري ، رقم (٤٦٠٩).

والعاصي بالنار ، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام ، ولهذا قالت " ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندعها " وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف.

قوله : ( لقد نزل بمكة إلخ ) أشارت بذلك إلى تقوية ما ظهر لها من الحكمة المذكورة ، وقد تقدم نزول سورة القمر - وليس فيها شيء من الأحكام - على نزول سورة البقرة والنساء مع كثرة ما اشتملتا عليه من الأحكام ، وأشارت بقولها " وأنا عنده " أي بالمدينة ، لأن دخولها عليه إنما كان بعد الهجرة اتفاقاً<sup>(١)</sup>.

٢- الخطاب البيئي الدعوي: وهو الخطاب الذي يتناسب مع بيئة معينة دون أخرى، ويتجلى هذا الخطاب في حديث معاذ عندما أرسله النبي ﷺ إلى اليمن قال له - أي لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن - «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ فُتْرُدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»<sup>(٢)</sup> وهذا الحديث فيه وضوح إذ بين النبي ﷺ معالم التكليف الدعوي وعرف معاذاً بهذه المعالم وهي:

١- التعريف بالبيئة: وذلك في قوله (أنك تأتي قوماً أهل كتاب) وذلك لأن دعوة أهل الكتاب تختلف عن دعوة غيرهم. (لكون أهل الكتاب أهل علم في الجملة فلا تكون العناية في مخاطبتهم كمخاطبة الجهال من عبدة الأوثان)<sup>(٣)</sup>:

(1) فتح الباري لابن حجر - (ج ١٤ / ص ٢٠٢).

(2) صحيح البخاري، رقم (١٤٢٥). صحيح مسلم، رقم (١٩).

(3) فتح الباري لابن حجر - (ج ٥ / ص ١٢٣).

«وإنما نبهه على هذا ليتهياً لمناظرتهم ويعد الأدلة لإفحامهم؛ لأنهم أهل علم سابق بخلاف المشركين وعبدة الأوثان»<sup>(١)</sup>.

٢- التدرج في المراحل: وذلك في قوله ﷺ «فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخِّرْهُمْ أَنْ اللَّهُ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ...» فلم يطلب منه دعوتهم للصلاة قبل التوحيد، ولم يطلب منه دعوتهم للزكاة قبل الصلاة.

ومعنى هذا التوجيه لمعاذ: (أي فادعهم بالتدرج إلى ديننا شيئاً فشيئاً ولا تدعهم إلى كله دفعة لئلا يمنعهم من دخولهم فيه ما يجدون فيه من كثرة مخالفته لدينهم فإن مثله قد يمنع من الدخول ويورث التنفير لمن أخذ قبل على دين آخر بخلاف من لم يأخذ على آخر فلا دلالة في الحديث على أن الكافر غير مكلف بالفروع كيف ولو كان ذلك مطلوباً للزم أن التكلف بالزكاة بعد الصلاة وهذا باطل بالاتفاق وهذا الحديث ليس مسوقاً لتفاصيل الشرائع بل لكيفية الدعوة إلى الشرائع إجمالاً وأما تفاصيلها فذاك أمر مفوض إلى معرفة معاذ فترك ذكر الصوم والحج لا يضر كما لا يضر ترك تفاصيل الصلاة والزكاة)<sup>(٢)</sup>.

٣- البعد عن المنفرات: حيث قال له النبي ﷺ: «فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ». فاختيار كرائم أموالهم للزكاة والوقوع في ظلمهم ينفهم عند دين الله ويبعدهم عنه.

إذن فالخطاب في القرآن نفسه، وفي توجيهات النبي ﷺ كان يتغير في قلبه وصورته، لا في حقيقته وجوهره، وذلك للوصول للغاية وهي الإقناع وإقامة الحجة.

(1) المفهم (١/١٨١).

(2) حاشية السندي، شرح سنن النسائي - (ج ٣ / ص ٤٥٩).

① ① ① ①

## الفصل الثاني:

### الخطاب الدعوي: مواصفاته وأنواعه:

أولاً - وصف الخطاب الدعوي النموذجي:

لا بد للخطاب الدعوي النموذجي أن يتصف بصفات تجعله خطاباً مقبولاً ومؤثراً في المخاطبين، حتى تقوم به الحجة وتحقق له الاستجابة بإذن الله، ولقد كان خطاب الأنبياء لرسولهم خطاباً نموذجياً تقوم به الحجة على المدعويين، ولذلك تكرر في دعوة الرسل قولهم لقومهم: (قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ) (الأعراف: من الآية ٧٣) وقولهم (فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ) (الأنعام: من الآية ١٥٧) (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ) (المائدة: من الآية ١٥).

استنباطاً من القرآن وما ورد فيه من دعوة الرسل وإقامتهم الحجة على أقوامهم، فإنه يمكننا أن نعين المواصفات اللازمة لكي يحقق الخطاب غايته، وهذه المواصفات هي:

أ- وضوح الدلالة: العبرة في الخطاب الذي تقوم به الحجة أن يكون مفهوماً لدى المخاطبين به، فلا عبرة بخطاب غير مفهوم، ولذلك أرسل الله سبحانه كل رسول بلسان قومه ليتحقق بذلك البيان، وتقوم الحجة، قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) (إبراهيم: من الآية ٤) (وهذه نعمة شاملة للبشر في كل رسالة . فلكي يتمكن الرسول من إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، لم يكن بد من أن يرسل بلغتهم، ليبين لهم وليفهموا عنه ، فتمت الغاية من الرسالة)<sup>(١)</sup>.

ولما أرسل الله محمد بين العرب وشرفهم بحمل الرسالة، جعل القرآن بلسان عربي مبين، وقال تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ

(1) في ظلال القرآن - (ج ٤ / ص ٣٨٨).

الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (الشعراء: ١٩٣-١٩٥) " أي هذا القرآن الذي أنزلناه إليك، أنزلناه باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بيناً واضحاً ظاهراً، قاطعاً للعدر، مقيماً للحجة دليلاً إلى المحجة"<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى على لسان موسى مخاطباً فرعون وقومه: (وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَيَّ اللَّهُ إِنَِّّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) (الدخان: ١٩) (٣) أي: بحجة ظاهرة واضحة، وهي ما أرسله الله به من الآيات البينات والأدلة القاطعة).

ولقد كان خطاب النبي ﷺ واضحاً في أسلوبه واضحاً في دلالاته.

فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لِأَخْصَاهُ<sup>(٢)</sup>.

والمراد المبالغة في الترتيل والتفهم.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعِيدُ الْكَلِمَةَ ثَلَاثًا لِتُعْقَلَ عَنْهُ. قَالَ أَبُو عِيْسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

ب- قوة الحجة: وذلك بأن تكون حجة قاطعة ساطعة لا سبيل إلى إبطالها، فلا بد أن تكون الحجة في الخطاب الدعوي قوية الدلالة والبرهان بحيث يقتنع من يسمعها وينقطع من يعاندها، قال تعالى: (قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَثُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) (ابراهيم: من الآية ١٠) أي (حجة بينة على صحة دعواكم)<sup>(٣)</sup>.. ولا بد أن تكون هذه الحجة: (بينة ظاهرة)<sup>(٤)</sup>.

(1) تفسير ابن كثير (٣/٣٤).

(2) رواه البخاري، رقم (٣٣٠٣).

(3) تفسير البغوي (ج ٣/ص ٢٨).

(4) تفسير السعدي (ج ٤/ص ٢٨).

ولما أقام الله سبحانه الحججة على المعاندين طالبهم بالرد عليها بالحجة والبرهان، وأنى لهم ذلك، قال تعالى: (أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلِلَّةٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (النمل: ٦٤).

وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا) (النساء: ١٧٤) (يقول تعالى مخاطباً جميع الناس ومخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، وهو الدليل القاطع للعدر، والحجة المزيعة للشبهة؛ ولهذا قال: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا) أي: ضياء واضحاً على الحق، قال ابن جرير وغيره: وهو القرآن) (١).

فالله سبحانه (يمتن على سائر الناس بما أوصل إليهم من البراهين القاطعة والأنوار الساطعة، ويقيم عليهم الحججة، ويوضح لهم الحججة، فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ) (النساء: من الآية ١٧٤) أي: حجج قاطعة على الحق تبينه وتوضحه، وتبين ضده. وهذا يشمل الأدلة العقلية والنقلية، الآيات الأفقية والنفسية (سُنُّرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)... (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا) وهو هذا القرآن العظيم، فالناس في ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره، وفي شقاء عظيم إن لم يقتبسوا من خيرهِ) (٢).

وهكذا كان هدي النبي ﷺ في إقامة الحججة على من يحاورهم ويناقشهم فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ولد لي غلام أسود فقال هل لك من إبل قال نعم قال ما ألوانها قال حمر قال هل فيها من أورك قال نعم قال فأنى ذلك قال لعله نزع عرق قال (فلعل ابنك هذا نزع عرق) (٣)

(1) تفسير ابن كثير (٤٨١/٢).

(2) تفسير السعدي (٢١٧/١).

(3) صحيح البخاري، رقم (٦٤٥٥) ج ٥/ص ٢٠٣٢

\* وعن أبي أمامة قال ان فتى شابا أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ائذن لي بالزنا فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا مه مه فقال أدنه فدنا منه قريباً قال فجلس قال أتحبه لأمك قال لا والله جعلني الله فداءك قال ولا الناس يحبونه لأمهاتهم قال أفتحبه لابنتك قال لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك قال ولا الناس يحبونه لبناتهم قال أفتحبه لأختك قال لا والله جعلني الله فداءك قال ولا الناس يحبونه لأخواتهم قال أفتحبه لعمتك قال لا والله جعلني الله فداءك قال ولا الناس يحبونه لعماتهم قال أفتحبه لخالتك قال لا والله جعلني الله فداءك قال ولا الناس يحبونه لخالاتهم قال فوضع يده عليه وقال اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء<sup>(1)</sup>

ج- كفاية التبليغ :

إن من مشكلات الخطاب الدعوي - في كثير من الأحيان - أنه يطرح كيفما اتفق، دون استخدام لأدلة العقل والمنطق، ودون إقامة للحجج والبراهين، ودون أداء على الوجه المطلوب، ثم يراد لهذا الخطاب أن يُستجاب له ويحقق الغرض المطلوب منه، ولا ينظرُ الدعاة إلى خطابهم ومدى كفايته لدعوة المخاطبين وإقامة الحجة عليهم، وتلبيته لاحتياجاتهم، وإجابته عن أسئلتهم، وحله لمشكلاتهم وقربه من واقعهم وحياتهم.

إن الخطاب الدعوي لا بد له من مواصفات خاصة حتى تتحقق به كفاية التبليغ، ومن هذه المواصفات:

١ - شمول جميع عناصر الرسالة بالتبليغ :

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (المائدة: ٦٧)  
" قال ابن عباس : المعنى بَلِّغْ جميع ما أنزل إليك من ربك، فإن كتمت شيئاً منه

(1) مسند الإمام أحمد بن حنبل، رقم (٢٢٢٦٥) ج٥/ص٢٥٦.

فما بلغت رسالته، وهذا تأديب للنبي صلى الله عليه وسلم، وتأديب لحملة العلم من أمته ألا يكتموا شيئاً من أمر شريعته"<sup>(١)</sup>. فلا بد أن يستوعب الخطاب الدعوي في جملته جميع عناصر الرسالة الإسلامية ويخرج عليها، وقد يكون ذلك بتوزيع مقصود أو غير مقصود لكنه يحقق المراد بحيث تتناول جهات وأفراد التركيز على جوانب والآخرون يركزون على الجوانب الأخرى بحيث يتحقق الشمول للمضمون الإسلامي.

٢- شمول البلاغ جميع المخاطبين .

قال تعالى: (هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ) (ابراهيم: من الآية ٥٢) وقال تعالى: (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) (الأنعام: من الآية ١٩) المراد أن القرآن هو بلاغ لجميع الخلق من إنس و جن "<sup>(٢)</sup>.

(والبلوغ والبلاغ الانتهاء إلى المقصد والمنتهى مكاناً كان أو زماناً أو أمراً من الأمور المقدرة)<sup>(٣)</sup>.

وعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»<sup>(٤)</sup>.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ النَّحْرِ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا قَالُوا يَوْمَ حَرَامٍ قَالَ فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا قَالُوا بَلَدٌ حَرَامٌ قَالَ فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا قَالُوا شَهْرٌ حَرَامٌ قَالَ فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ

(1) تفسير القرطبي: (٢٤٢/٦).

(2) انظر تفسير ابن كثير (٤٥٤/٢).

(3) المفردات للأصفهاني، ص ٦٠.

(4) رواه البخاري، رقم (٣٢٠٢).

وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا  
فَاعَادَهَا مِرَارًا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ»<sup>(١)</sup> .

وحتى يشمل الرسول ﷺ جميع المخاطبين في زمانه قام بعرض نفسه على القبائل في مواسم الحج، فعن جابر رضي الله عنه قال: (مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتَّبِعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بَعْكَاطٍ وَمَجَنَّةَ وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمَنَى يَقُولُ: «مَنْ يُؤْوِينِي مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ»<sup>(٢)</sup>) وذهب إلى الطائف، وواستمر في ذلك حتى أثمرت دعوته باستجابة الأنصار إليها ودخولهم في الإسلام. ولم يكتف النبي ﷺ بذلك بل كاتب الملوك في زمانه فكاتب كسرى وقيصر والمقوقس حاكم مصر وغيرهم.

وأمر أصحابه أن يبلغوا عنه دعوته، وحثهم على ذلك بقوله: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»<sup>(٣)</sup> وقوله ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»<sup>(٤)</sup>، ثم أرسل رسله بالدعوة إلى اليمن والبحرين وغيرها من المناطق.

### ٣- توفر عناصر التأثير:

أ- من الأمور المهمة أن يشتمل الخطاب الدعوي - رغم تناوله لجميع عناصر الرسالة وتوجهه إلى جميع الناس - على العناصر المؤثرة التي تحقق المراد وهو الإقناع والإتباع، وثمة عناصر أساسية للتأثير وهي: المحبة القلبية.

المحبة تقود إلى المتابعة للمحبوب، وتقديمه على من سواه، وتلمس موافقة هواه، ولذا فإن صاحب الرسالة يتحجب إلى المدعويين، ويسعى إلى كسب محبتهم له وميل قلوبهم إليه، لأن ذلك أعظم عون على قبولهم منه وإتباعهم له، وبدونه لا يحصل التأثير الإيجابي بالمتابعة ولو أقيمت الحجج ونصبت الأدلة لأن البغض للداعي

(1) رواه البخاري، رقم (٦٥).

(2) مسند أحمد - (١٣٩٣٤).

(3) رواه البخاري، رقم (٣٢٠٢).

(4) رواه مسلم، رقم (٣٥٠٩).

يصد عن قبول دعوته وإن كانت حقاً: (فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) (آل عمران: من الآية ١٥٩) فالاستجابة والمتابعة أعظم مقتضيات المحبة، وهما في الوقت نفسه أعظم آثارها.

وإذا تمكنت المحبة فإنها تورث تعلقاً عجبياً بالمحبوب يدفع إلى فعل مقتضاها من الموافقة وإن كان في ذلك مضرة ظاهرة أو إعراض عن محبوبات أخرى هي أكثر أهمية، ويتحمل المحب في ذلك ما يلقي من المعارضة والملامة، وبالجملة فأصل كل فعل وحركة في العالم من الحب والإرادة، فهو أصل كل فعل ومبدؤه، كما أن البغض والكرهية مانع وصاد لكل ما انعقد بسببه ومادته<sup>(١)</sup>.

ومما يقوي أثر المحبة من الموافقة والاتباع حصول اللذة والنعمة والفرح والسرور وقرّة العين به على قدر قوة محبته وإرادته والرغبة فيه<sup>(٢)</sup> ويلحق بذلك أن المحبة توقد نار الشوق فيبقى القلب بالمحبوب ومطلوبه مشغولاً، والعقل في أمره مفكراً والشوق أثر من آثار المحبة وحكم من أحكامها فإنه سفر القلب إلى المحبوب في كل حال<sup>(٣)</sup>.

وهكذا نجد للمحبة أثرها العظيم في الفكر والسلوك، والمحبة والإرادة أصل كل دين سواء كان ديناً صالحاً أو ديناً فاسداً فإن الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة والمحبة والإرادة أصل ذلك كله<sup>(٤)</sup>، وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل وهو أصل الأعمال الدينية وغيرها<sup>(٥)</sup> علمنا أهمية هذا العنصر.

ب- الحججة العلمية

الهوى يهوي بصاحبه والعقل — بإذن الله — يعصمه، والعقلاء يحكمون عقولهم

(1) جامع الرسائل والمسائل (١٩٣/٢).

(2) روضة المحبين (ص/١٥٥، ١٥٦).

(3) تهذيب مدارج السالكين (ص: ٥٢٥).

(4) جامع الرسائل والمسائل (٢١٨/٢).

(5) المصدر السابق (٢٣٥/٢).

في أهوائهم، وهذا تصرف الرجال فقد يُحب القلب فعلاً معيناً وتهوى النفس سلوكاً محدداً، فيعترض العقل بالنظر في البواعث، والتأمل في العواقب، فيكبح جماح الهوى إذ أنه لما كان الهوى غالباً، إلى سبيل المهالك مورداً، جعل العقل رقيقاً مجاهداً، يلاحظ عثرة غفلته، ويدفع بادرة سطوته، ويدفع خداع حيلته، لأن سلطان الهوى قوي، ومدخل مكره خفي<sup>(١)</sup> وإذا كانت الدولة للعقل سالمة الهوى، وكان من خدمه وأتباعه، كما أن الدولة إذا كانت للهوى، صار العقل أسيراً في يديه، محكوماً عليه<sup>(٢)</sup> وما مثل الهوى إلا كسبع في عنقه سلسلة فإن استوثق منه ضابطه كفه، وربما لاحت له شهواته الغالبة عليه فلم تقاومها السلسلة فأفلت، على أن من الناس من يكف هواه بسلسلة، ومنهم من يكفه بخيط<sup>(٣)</sup>.

وربما لا تكون هناك محبة ولا ميل في النفس ابتداءً ولكن الحجة والبرهان يحصل بها قناعة العقل التي تزين الفعل أو الرأي للنفس وتجيئه إلى القلب، فالقناعة لها تأثيرها الذي لا ينكر في دفع الإنسان لاتخاذ المواقف والآراء، وممارسة الأفعال، أو الامتناع من ذلك، وتلك مزية العقل الراشد الذي هو من أهم البواعث فلا يسمى عاقلاً إلا من عرف الخير فطلبه والشر فتركه، ومن فعل ما يعلم أنه يضره فمثل هذا ماله عقل<sup>(٤)</sup>.

وهذا يوضح أثر العقل وقناعته في توجيه الآراء والسلوكيات، مع عدم إهمال أثر القلب وعاطفته، إذ قد توافق فيقوى التأثير ويتمكن، أو تخالف فتكون هناك المغالبة ثم الغلبة لأحدهما.

ج- القدوة الحية:

لا يخفى أبداً أثر القدوة فهي الصورة الحية للفكرة، والتطبيق العملي

(1) أدب الدنيا والدين (ص: ٣٥).

(2) روضة المحبين (ص: ١٠).

(3) صيد الخاطر (ص: ١٦٤).

(4) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٤/٧).

للدعوة، والتوضيح الجلي للحجة، ولا شك أنها من أعظم أسباب بذر المحبة في القلوب، ووجود القناعة في العقول وكثير من المدعويين ينتفعون بالسيرة ولا سيما العامة وأرباب العلوم القاصرة فإنهم ينتفعون من السيرة والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ما لا ينتفعون من الأقوال التي قد لا يفهمونها<sup>(١)</sup>.

والعكس صحيح فلو وجدت المحبة، وأقيمت الحجة، وبذلت الدعوة كان لتخلف القدوة ووجود ما يعارض مقتضى الدعوة أثره في ضعف التأثير ونقص المحبة، وزعزعة القناعة ومعلوم أن التأسى بالأفعال - بالنسبة لمن يعظم في الناس - سرُّ مبعوث في طباع البشر، لا يقدرّون عن الانفكاك عنه بوجه ولا مجال ولا سيما عند الاعتياد والتكرار<sup>(٢)</sup>، ورحم الله ابن القيم حيث أبدع في بيان عكس هذه الحقيقة عندما قال: علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم فكلموا قالت أقوالهم للناس هلموا قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له فهم في الصورة أذلاء وفي الحقيقة قطاع الطريق<sup>(٣)</sup>، والله درهرم بن حيان حيث حذر من العالم الفاسق فكتب إليه عمر رضي الله عنه يسأله عن مراده فقال: يكون إمام يتكلم بالعلم ويعمل بالفسق، ويشبه على الناس فيضلوا<sup>(٤)</sup>.

وفي كثير من الأحيان تكون القدوة الحسنة مغنية عن كثير من أساليب الترغيب والتشويق وأسباب تحصيل المحبة، وكذلك تعفي من الاستكثار من الاستدلال، وإقامة الحجة والمناظرة والجدال، إذ يتحقق من خلال القدوة الكثير من ذلك بشكل تلقائي وبصورة أعمق وأثبت حيث أن القدوة تساعد على تكوين الحافز في المتربي دونما توجيه خارجي<sup>(٥)</sup> لأن المثال الحي المرتقي في درجات الكمال يثير في نفس البصير العاقل قدراً كبيراً من الاستحسان

(1) مجموع فتاوى ابن باز (٣/١١٠).

(2) الموافقات (٤/٢٤٨ - ٢٤٩).

(3) الفوائد (ص: ٨٠).

(4) نزهة الفضلاء (١/٣٢٨، ٣٢٩).

(5) القدوة مبادئ ونماذج (ص: ١١).





صارت مطروحة ومطروقة في كل المجتمعات ومن ثم ينبغي للخطاب الدعوي أن يتناولها من المنطلق الإسلامي، وهذه عشرة عناصر أرى أن الخطاب الدعوي ينبغي أن يراعيها ويتصف بها ليكون خطاباً إسلامياً عصرياً مقنعاً ومؤثراً.

١- الأصالة المنهجية الشرعية: وذلك بالاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، والاعتماد عليها: وذلك بالانطلاق من نصوص الكتاب والسنة، والاستدلال بها، والتحاكم إليها مع أهميته صحة فهمها، وحسن عرضها، ومراعاة متطلبات تنزيلها في الواقع، ولا بد من التأكيد أن الخطاب الدعوي هو قبل كل شيء خطاب إسلامي أصيل، ولن يجد أعظم ولا أحكم ولا أكمل ولا أشمل من نصوص الوصيين لتكون هي أساسه في التصور، ومادته في الحوار والعرض.

٢- الشمول التكاملي المؤثر: بحيث يشمل الخطاب جميع جوانب الرسالة، وظهر إعجازها وتناسقها، ويخاطب العقول والنفوس، ويقدم الأدلة والبراهين، كما يرغب ويشوق للمضامين.

٣- التوازن النسبي الملائم: فلا يهتم الخطاب الدعوي بجانب ويهمل آخر، بل يوفي كل جانب حقه، ويعطيه قدره، ويوجهه لمن يحتاجه، ويعتني به في البيئة التي تفتقر إليه.

٤- الإقناع العقلي المتمكن: وذلك بإقامة الحجج والبراهين العقلية مستخدماً لكل بيئة ما لديها من الأسس الفكرية والمناهج العقلية الشائعة فيها فابن تيمية - على سبيل المثال - خاطب الفلاسفة بلغتهم وعارض حججهم بأدلتهم ونقض الباطل في فلسفتهم معتمداً على منطقهم وقواعدهم.

٥- الحوار المبدئي الهادف: وهو القائم على تقرير مبادئ الدعوة الأصلية (لا إكراه في الدين)، (إنك لا تهدي من أحببت)، والمؤسس على أن الحوار مطلب أساسي ومنهج قرآني فقد ورد في القرآن الحوار مع إبليس ومع الكافرين، ومع الطغاة، ولا بد لهذا الحوار أن تكون له مرجعية ومبادئ منهجية متفق عليها، وأن يسعى للوصول إلى الحق .

٦- التيسير الشرعي المرغوب: وذلك من خلال التيسير والتبشير والبعد عن التنطع والتشدد حسب المفهوم الشرعي الصحيح لكل هذه المصطلحات، فواقع المسلمين وغير المسلمين اليوم غلبت عليه الأهواء لا الأديان، والفردية لا الجماعية، ورد الناس إلى الصواب يحتاج إلى ترغيبهم لا في الأجر والثواب بل قبل ذلك في أن مصالح معاشهم وتعايشهم تتحقق بما جاء به الإسلام من المعاني والمعالن العامة للبشرية ومن الأحكام والتشريعات الخاصة لأتباعه.

٧- الواقعية الاستيعابية الواعية: وهي التي تنطلق من فقه شامل للواقع بحيث تكون هناك آليات متصلة بهذا الواقع تلمس تغيراته وتطلع على مستجداته وتستوعب ذلك إدراكاً بالتصور، وتقريراً للموقف، وقدرة على التعامل، ومبادرة إلى التأثير الإيجابي واستغلال النافع وتوظيفه، ومواجهة الضار وتحجيمه بالحجة والحوار والتوجيه إلى الأفضل والأمثل.

٨- اللغة الإيجابية الراقية: إن لغة الخطاب مهمة جداً فهي مثل الملابس الزاهية الجميلة تسر النظر وترغب في المنظر بل تستر العيب وتحمله، وربما يكون المضمون صحيحاً ومشروعاً لكن لغة عرضه تكون سلبية قائمة النقد وحده وعلى التحريح وحدته وعلى تغليب اليأس والقنوط أو الاكتفاء بالترهيب دون الترغيب، فيكون من مجموع ذلك تنفيراً من الصواب، وصدأً عن الولوج إلى الأبواب، ومن ذلك ترك لغة التشجيع إلى التثييط، والتفأؤل إلى التشأؤم، والأمل إلى اليأس وهكذا.

ومن جهة أخرى فإن مفردات الخطاب الدعوي ينبغي أن تكون راقية سامية تترفع عن كل ما يليق استخدامه في سياق الدعوة، والدعوة طلب وتشجيع وتوجيه لا يتفق معها ألفاظ قاسية فضلاً عن النائية، وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم للملوك عصره نموذج يحتذى في ذكرهم بألقابهم ومناصبهم وما يلحق بذلك.

٩- الخبرة التجريبية المتراكمة: وذلك بالاستفادة من جهود السابقين والمعاصرين - لاسيما الدعوة - في كل ما يعود على الدعوة بالنفع ويحقق مقاصدها فإن في الأمة من الأعيان والمؤسسات من حققت نجاحاً واضحاً في جوانب معينة، فالشيخ الداعية أحمد ديدات رحمه الله تميز في مناظرة قساوسة النصرانية، والدكتور عبدالرحمن السميظ ومؤسسته كانت لها نجاحات في البيئات الوثنية والنصرانية في أفريقيا، ولبعض المؤسسات الإسلامية تجارب متميزة في مخاطبة المجتمعات الغربية وهكذا.

١٠- المعرفة الثقافية المتخصصة: وذلك حسب الحاجة فلا بد للداعية أن يكون له زاداً في تخصصه وفي مخاطباته لأهل التخصصات المختلفة، وكذا المؤسسات الدعوية ينبغي أن تعنى في برامجها الدعوية وفي تأهيل دعائها إلى تزويدهم بالتخصصات اللازمة.

## الفصل الثالث:

### العوامل المؤثرة في الخطاب الدعوي :

يتأثر الخطاب الدعوي بعوامل متعددة، ويعد هذا التغير استجابة إيجابية حتى يكون الخطاب بالموصفات المذكورة آنفاً وحتى يحقق الغاية وهي الإقناع والتوجيه، ومن أبرز العوامل ما يلي:

#### ١- أصناف المخاطبين :

إن أول عوامل التأثير هو نوعية المخاطبين والرسول صلى الله عليه وسلم مخاطب أهل الكتاب بغير ما خاطب به المشركين الوثنيين .

وهناك أصناف من المدعوين يحتاج الداعية معهم إلى إقامة الحجة العقلية لإثبات القضية ولعدم اكتفائهم بالأدلة الشرعية ومن هؤلاء :

- ١- الكافرون الذين لا يؤمنون بالكتاب والسنة .
- ٢- المعتدّون بعقولهم المقدمين لها على النص النقلية .
- ٣- المخدوعون بالشبهات أو المتعلقون بالشهوات .
- ٤- المعاندون الذي يتبعون الباطل تبعاً لمصالحهم ويسعون إلى إضلال غيرهم .
- ٥- الواقعون تحت تأثير الأوضاع والأعراف الخاطئة حتى ألفوها ورأوها صواباً .

وهناك أساليب كثيرة مستنبطة من الكتاب والسنة في إقامة الحجة العقلية واستخدام الأقيسة المنطقية واستحضار التفكير والتأمل فيها . وقد سبقت الإشارة إليها وتفصيلها.

#### ٢- طبائع المخاطبين :



روى الإمام البخاري في صحيحه في كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله<sup>(١)</sup>؟

وروى مسلم عن ابن مسعود: " ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة "<sup>(٢)</sup> .

قال ابن حجر: " وممن كره التحديث ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان ، ومالك في أحاديث الصفات ، وأبو يوسف في الغرائب ، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجرايين وأن المراد ما يقع من الفتن ، ونحوه عن حذيفة وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمد منه من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي ، وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة وظاهره في الأصل غير مراد ، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب . والله أعلم"<sup>(٣)</sup> .

ولذا ينبغي للداعية مراعاة ذلك وعدم مخالفته سيما بالنسبة للعوام، ومن تقصر بهم الفهم، وقد عد الشاطبي في الاعتصام هذا التجاوز ضرباً من الابتداع فقال: " ومن ذلك التحدث مع العوام بما لا تفهمه ولا تعقل معناه فإنه من باب وضع الحكمة في غير موضعها وسامعها إما أن يفهمها على غير وجهها - وهو الغالب - وهي فتنة تؤدي إلى التكذيب بالحق والعمل بالباطل، وإما لا يفهم منها شيئاً وهو أسلم "<sup>(٤)</sup> .

#### ٤ - نية المخاطبين:

(1) صحيح البخاري، (١٢٧).

(2) صحيح مسلم ج ١/ ص ١١.

(3) فتح الباري ج ١/ ص ٢٠٣.

(4) الموافقات ١٣/٢.

اختلاف وصايا النبي ﷺ باختلاف أحوال أصحابها: «لا تغضب»، «قل  
آمنت بالله ثم استقم»، «لا يزال لسانك رطباً بذكر الله».

اختلاف الحكم والخطاب باختلاف المقاصد والنيات : ولذلك لم يكفر من  
قال عندما يجد ضالته : (اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح)،  
كما في حديث التوبة.

قال ابن القيم: " إياك أن تهمل قصد المتكلم ونيته وعرفه فتجني عليه وعلى  
الشريعة وتنسب إليها ما هي بريئة منه" (١).

## ٥- الأعراف والعوائد العامة :

إن كل بلد لها أعرافها وكل بيئة لها عوائدها، ومراعاة ذلك بالضوابط  
الشرعية، من ضروب الحكمة وموافقة جوهر الشريعة، وقد امتن الله على البشر  
بإرسال الرسل وخص بالمنة كون الرسل من البشر وامتن على الأقسام جعل  
الرسل منهم ينطقون بألسنتهم، فقال تعالى: **ثُمَّ كَلَّمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**  
**وَأَنبَأَهُم بِأَنفُسِهِمْ** [إبراهيم: ٤] فهذا " من لطفه تعالى بخلقه أن يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم  
ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به" (٢)، ولذا ينبغي للداعية التنبه لذلك،  
والحرص على معرفة الأعراف والعوائد في البيئة التي يدعو إليها لتكون دعوته  
مؤثرة في النفوس، مقنعة للقلوب، مناسبة للظروف، قابلة للتطبيق فإذا جاء في بيئة  
يغلب عليها الفقر ويشيع فيها الكسل فإن المطالب بالزهد في الدنيا والترفع عن  
شهواتها غير مناسب للبيئة وأحوال الناس .

قال ابن القيم في إعلام الموقعين منبهاً على هذا الموضوع: " ولا تجمد على  
المنقول في الكتب طول عمرك بل إذا جاءك رجل من غير إقليمك يستفتيك فلا

(1) إعلام الموقعين (٦٢/٣).

(2) تفسير ابن كثير (٥٢٢/٢).

تجره على عرف بلدك، وسله عن عرف بلده فأجره عليه وأفته به دون عرف بلدك والمذكور في كتبك"<sup>(١)</sup>.

ثم بين أثر ذلك وضرره فقال: "ومن أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب على اختلاف عرفهم وعوائدهم وأزمنتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم فقد ضل وأضل، وكانت جنايته على الدين أعظم من جناية من طبّب الناس كلهم على اختلاف بلادهم وعوائدهم وأزمنتهم وطبائعهم بما في كتاب من كتب الطب على أبدانهم بل هذا الطبيب وهذا المفتي الجاهل أضر ما على أديان الناس وأبدانهم"<sup>(٢)</sup>.

## ٦- ترتيب الأولويات :

المراد بترتيب الأولويات معرفة مراتب الأعمال ووضعها في مواضعها، فإن المنهج الإسلامي قد جعل لكل عمل قدراً، فإمارة الأذى عن الطريق وإن كانت من الإيمان فإن رتبها كما قال ﷺ: «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إمارة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان»<sup>(٣)</sup> ولا إله إلا الله يقاتل من أجلها كما أخبر الرسول الكريم ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»<sup>(٤)</sup> وإمارة الأذى لا يمكن أن تكون سبباً لقتال بل هي دون ذلك بكثير ويكفي فيها نصح ووعظ، ولا يمكن المساواة بينهما في الدعوة إليهما والبذل في سبيل تحقيقهما.

(1) إعلام الموقعين (٧٨/٣)

(2) إعلام الموقعين (٧٨/٣).

(3) صحيح البخاري، (٩)، صحيح مسلم، (٣٥).

(4) صحيح البخاري، (٣٨٥)، صحيح مسلم، (٢٠).

قال ابن تيمية: " العمل الواحد يكون فعله مستحب تارة، وتركه تارة باعتبار ما يترجح من مصلحة فعله وتركه حسب الأدلة الشرعية، والمسلم يترك المستحب إذا كان في فعله فساد راجح على مصلحته"<sup>(1)</sup>.

ولابد للداعية أن يعلم أن الأصول لا بد أن تقدم على الفروع ، والفروض تقدم على النوافل، وفروض الأعيان مقدمة على فروض الكفايات، وفروض الكفايات التي فيها عجز ظاهر أولى من التي انتدب لها غيره من المسلمين .  
ولابد أن يكون الخطاب حجماً ونوعاً واهتماماً يتناسب مع أهمية الموضوع ومكانه الإسلام ، وموقعه من حاجة المسلمين .

٧- المناسبات والأوقات :

عن ابن مسعود: " كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحولنا بالموعظة في الأيام كراهة السامة علينا " .

عن ابن مسعود: " حدثت القوم ما حدجوك بأبصارهم وأقبلت عليك قلوبهم، فإذا انصرفت عنك قلوبهم فلا تحدثهم " .

حديث: " يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة ... " .

وهناك عوامل أخرى كثيرة وحسبنا تلك الإرشادات الموجزة .

## مجالات الخطاب الدعوي المعاصر:

١- الخطاب الدعوي للطفولة: وذلك بكتب الأطفال والقصص، والأشرطة والدروس، وللأسف فإن هناك قصوراً في هذا الجانب عند الدعاة، بل ربما وصل الأمر عند البعض إلى عدم الالتفات للطفولة وعدم الشعور بحاجتها إلى برامج وأدبيات خاصة بها تخاطبها وتوجهها الوجهة الإسلامية.

(1) الفتاوى (٢٤٧/١٩٥).

٢- **الخطاب الدعوي للمرأة المسلمة:** والمطلوب تنويع أساليبه وتوسيع دائرته لتصل إلى الحديث عن شخصية المرأة ودورها في بناء المجتمع ورسالتها في خدمة الدعوة وأهميتها في كيان الأمة بدلاً من اقتصرها على الحجاب والتبرج وبعض الأحكام على أهميتها.

٣- **الخطاب الدعوي لفئة الشباب:** وهو خطاب يحتاج إلى توجيه اهتماماتهم وترشيد حماسهم، واستغلال طاقاتهم، وإشعارهم بالمسؤولية تجاه مستقبل الأمة، وتوعيتهم بحجم الهجمة الشرسة الموجهة ضدهم. كما ينبغي أن يكون أكثر الخطابات معاصرة وصلة بالمستجدات وأن ينطلق من المعرفة لطبيعة الشباب الفكرية والنفسية وأن يكون مراعيًا للجواذب والمغريات المؤثرة في الشباب.

٤- **الخطاب الدعوي لجمهور الناس:** وهو يحتاج إلى معرفة أوثق بواقعهم وتنزل أكثر إلى مصطلحاتهم ومشكلاتهم .

### ٥- **الخطاب الدعوي لغير المسلمين:**

وهناك ألوان أخرى من الخطاب الدعوي السياسي والإعلامي يجب الاهتمام بها .

### **عناصر مقترحة لخطاب غير المسلمين :**

بعد أحداث سبتمبر طرحت قضية التعريف بالإسلام وخطاب غير المسلمين بقوة ، وجرى الحوار حول هذه القضية في محاور شتى ، ومنها: مدى حسن عرض الإسلام والتعريف به .بمعنى مدى تحقيق مفهوم البلاغ المبين ، وكذلك مدى كفاية انتشار هذا التعريف ، وإضافة إلى مدى ملائمة التعريف به والخطاب للمخاطبين واستعماله لما لديهم من ثقافة وأعراف في العرض بهدف الإقناع ، ويلحق بذلك مدى كفاءة الردود على الأسئلة والشبهات بل والهجوم

البذيء والتشكيك المقصود في الإسلام وتشريعاته ، وهذه القضية تحتل الآن مكاناً بارزاً في الأولويات .

الغرب الديمقراطي يملك حالياً ناصية التقدم العلمي والتكنولوجي ، ويتفوق في جانب التسليح العسكري ويسيطر على المشهد السياسي ، ويصف دُوكه بأنها حامية حقوق الإنسان ورافعة راية العدالة والمساواة والمروحة للديموقراطية والمشاركة الشعبية فإن الخطاب الدعوي للغرب مهم وفي رأي المتواضع أن الخطاب الإسلامي للغرب المسيحي يمكن عرضه في النقاط التالية :

أ- المضامين :

الاستشهاد بالدراسات والمواقف الناقدة للنظم الغربية القائمة في مجالات الحياة الأخرى كالاقتصاد والسياسة، وتوضيح مواقف وحجج الغربيين المعارضين للعولمة والتجارة العالمية والانحياز السياسي والنفاق الدولي والإفساد البيئي والإجرام الحربي ، وهناك جمعيات غربية مدنية معارضة في مجالات متخصصة لديها معلومات ووثائق وحقائق من المهم الاستفادة منها .

١- التركيز على إبراز المنهج الإسلامي في مجالات الحريات وحقوق الإنسان والعدالة والمساواة والشورى وغيرها من منطلق الأصالة الإسلامية دون نبرة التبرير والانهازامية.

٢- التركيز على الجانب الاجتماعي في الإسلام في قضايا المرأة والزواج والأمومة والطفولة والتربية وبيان محاسن الإسلام في ذلك كله من خلال عرض نصوص الكتاب والسنة بعيداً عن الأعراف والتقاليد السائدة في دول العالم الإسلامي المختلفة.

٣- التركيز على قضية ثبوت القرآن وسلامته من التحريف وبيان ما حظيت به السنة من منهجية التوثيق والضبط.

- ٤ - التركيز على عظمة شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وبيان الإعجاز العلمي في القرآن والسنة وتوضيح ذلك بالبراهين العلمية، وبيان مواقفه التي تكشف المعاني الإنسانية والتربوية العظمة .
- ٥ - التركيز على إبراز معالم الحضارة الإسلامية المنهجية والتطبيقية وبيان مآثرها على البشرية عامة وعلى الحضارة الغربية خاصة .
- ٦ - الاستشهاد ببعض ما هو صحيح من الناحية الفعلية والشرعية العامة مما ينادون به من حقوق إنسان التركيز على الكليات والمقاصد الإسلامية الكبرى .

ب - الشواهد والأدلة :

- ١ . الاستشهاد بأقوال المسلمين من الغربيين من خلال تجربتهم الإسلامية ومعرفتهم الواقعية لمجتمعاتهم وثقافتهم .
- ٢ . الاستشهاد بأقوال المنصفين من المؤرخين والمفكرين من الغربيين .
- ٣ . ذكر قصص الذين دخلوا في الإسلام وأسباب دخولهم وأقوالهم وبيان مكانم العظمة والحق التي دفعتمهم لذلك .
- ٤ . الاستشهاد بالواقع الغربي الاجتماعي من خلال الإحصائيات والدراسات التي تظهر ما فيه من مفاسد وآثار سلبية نفسياً وصحياً وأمناً واقتصادياً ، وإبراز أن المطالب والمشروعات الإصلاحية التي ينادي بها بعض الغربيين إنما هي جزء من تشريعات الإسلام ومحاسنه .
- ٥ . عرض قوانينهم ومدى مخالفتهم لها في تقييدهم للحريات وإلزامهم بما تقتضيه من فكر وسلوك يتعارض مع ما هم عليه فتكون الحجة عليهم منهم

ج - الأسلوب :

١. أن يكون الأسلوب قائماً أساس العرض والتعريف .
٢. أن يكون الأسلوب مبنياً على مبدأ الحوار والنقاش والأخذ والرد .
٣. أن يكون الأسلوب هادئاً عقلاً نياً يجمع بين مخاطبة العقل والعاطفة .
٤. أن يكون الأسلوب مشوقاً وبلغاً راقية ، وبما يناسبهم من الخطاب الذي يآلفونه ويعرفونه .

د- المخاطبين :

- ينبغي أن يتولى المخاطبة من هو أهل لها وتتوفر فيه صفات منها :
١. التمكن الجيد من العلم الشرعي وخاصة في القرآن والسنة .
  ٢. المعرفة الجيدة بالواقع عموماً وواقع الحضارة والمجتمعات الغربية وعقلية الغربية خصوصاً .
  ٣. المعرفة العامة بالشبهات المثارة لدى أوساط الغربيين والردود التفصيلية عليها .
  ٤. المتابعة العامة لاتجاهات الرأي العام ووسائل الإعلام تجاه القضايا والموضوعات الإسلامية .

والمقام يضيق عن الاستيعاب ولكنها أطر عامة ، ويبقى أن لغة الخطاب قد تختلف عندما يكون الخطاب للسياسيين أو للمفكرين أو للمشككين أو للحاقدين.

وفي الحقيقة إن هذا الأمر مهم ويحتاج إلى بذل جهد ، وينبغي التأكيد أن هذا الخطاب ليس تمييزاً للغربيين أو تفضيلاً لهم ، فضلاً عن أن يكون مجاملة أو مدهانة أو مصانعة ومنافقة لهم ، كلاب هو ما تقتضيه خدمة الإسلام ودعوة غير المسلمين وكل يخاطب بحسبه ، ثم إن القوم لهم من القوة ما لهم والعناية بكسبهم للإسلام مفيدة جداً ، وحتى تحييدهم وجعلهم يعرفون حقائق الإسلام له أثر بالغ

ونفع عام ، والرسول صلى الله عليه وسلم كان يحرص على إسلام رؤساء القبائل وزعماء الأقاليم ويعتني بهم وينزلهم منازلهم .

ولا ننسى أن الصهاينة يعملون بجد لإثارة الغرب ودفعه نحو العداء الشامل للإسلام والمسلمين حتى أصبح الإعلام المؤثر حامل لواء تشويه صورة الإسلام ولا بد من مواجهة واعية بأهلية كافية .

**هـ - القوالب الفنية:** وهي الوسائل الدعوية المختلفة، لا سيما الوسائل المعاصرة كالشبكة العنكبوتية (الإنترنت) وما فيها من مواقع ومنتديات وغرف المحادثة، والمجموعات البريدية، ولا شك أن المواقع الإسلامية تؤدي اليوم دوراً بارزاً يتسم بالتجديد والتفاعل الإيجابي، إضافة إلى الانتشار الواسع وإيصال الدعوة إلى جماهير غفيرة وأعداد كبيرة.

وكذلك القنوات الفضائية بمضامينها المختلفة، كالبرامج الحوارية والندوات والإعلانات والأفلام المصورة والمترجمة، وكذا التلاوات القرآنية المجردة أو المترجمة، وكذلك عرض الأحاديث النبوية بأساليب دعوية متنوعة.

وهناك سائل الاتصال كالجوال ورسائل الجوال والمقاطع الدعوية المصورة وغير ذلك كثير.

لذا على الدعوة «أن يبلغوا الناس ما يجب عليهم في أمور دينهم ودنياهم من كل الطرق كطريق الإذاعة والتلفاز والصحافة وطريق الخطابة في المجتمعات، وفي الحفلات المناسبة، ومن طريق التأليف ومن كل طريق يمكن منه تبليغ شرع الله»<sup>(1)</sup>، وهناك الكثير من الوسائل الإيضاحية التي يمكن الاستفادة منها، إضافة إلى وجود قنوات تأثير واسعة جاءت ضمن أنماط الحياة المعاصرة كالنقابات المهنية، والمؤسسات الاجتماعية وغيرها مما لا بد للدعاة أن يحسنوا التعامل معها والاستفادة منها.

(1) مجموع فتاوى ابن باز (١٨/٥).

وكل وسيلة مؤثرة ليس فيها ما يخالف الشرع أو يعارض مصلحة الدعوة  
فالأخذ بها مطلوب لما فيه من استمرارية وتوسيع لنشاط الدعوة مع ما فيه من  
التنوع الذي يزيد به الإقبال على الدعوة والتأثر بها.

① ① ① ①